بين بدر وأحد :

الفـــــدائى الأول

الأستاذ عمر الخطيب

مد الليل جناحه وشمل الكون ظلام دامس ... وتحرك الجيش الصغير فى هدأة الليل وغمرة الظلام من المدينة يتقدمه القائد الأعظم (رسول الله) ومن ورائه أصحابه كالكواكب المتلألئة حول البدر المنير ... ساروا وقد سبقهم الخيال إلى ماء (بدر) حيث يعسكر المشركون الذين تجمعوا ليحبطوا دين الله ويقتلوا رسول الله ويؤذوا أصحابه (الصابئين) ... فاستحث القوم جيادهم وأسلسوا لها القياد ، وقلوبهم تخفق شوقاً للجهاد ، ونفوسهم ترقص طرباً بلقاء أعداء الله الذين آذوهم وأخرجوهم من ديارهم ... ولم يكن أحب المسلم إذ ذاك من خوض ساحات الشرف حيث يصول ويجول ويجندل الأقران ويصدع الشجعان ، وقد آلى على نفسه أن يستشهد فى سبيل العقيدة التى يؤمن بها ، والمبدأ الذى ملك عليه لبه ...

ولما كانوا (بعرق الظبية) استشار الرسول أصحابه ، فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، وقام المقداد بن عمرو فقال : « يا رسول الله ، امض لما أراك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا معكما مقاتلون » !

وسكت الناس بعد أن استمعوا لمقالة المقداد ، فقال رسول الله : أشيروا على أيها الناس ، وكان يريد بكلمته الأنصار الذين أعطوه موثقاً أن يؤازروه وينصروه ويمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ...

فقام صاحب رايتهم (سعد بن معاذ) وقال : لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل؛ فقال سعد : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا ... على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ... فوالذى بعثك لواستعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد . فتهلل وجه الرسول واطمأنت نفسه ، ووثق من إخلاص الجند لقائدهم واستعدادهم فى سبيل دينهم

***

جاء (أنس بن النضر) ، وقد كان غائباً عن المدينة ، فغدا إلى المسجد ليؤدى الفريضة خلف رسول الله ويستمع إلى حديثه العذب الجميل ويجتمع مع إخوانه الصادقين ليتدارسوا القرآن ، ويتعاونوا على الخير ، ويفكروا فيما يرفع شأن دينهم ويحقق لهم أمانيهم ... وما إن دخل المسجد حتى ألفى نفسه وحيداً بين شيوخ كبار ، وصبية صغار ، يركعون ويسجدون ، ويضرعون ويبتهلون ، فراعه أن يجد المسجد على غير ما ألفه ، واستوضح من القوم الخبر فأنبؤوه بأن الرسول فى غزوة يقاتل المشركين ... فأفلت من يده ودمعت عينه ندماً على ما فاته من الجهاد مع رسول الله ، ورجع خائباً إلى بيته وفى قلبه أسى وفى صدره غصة وفى نفسه حسرة !

***

ورجع المسلمون من (بدر) ، وقد نصر الله حزبه وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ، وقتلوا من قريش مقتلة عظيمة ، ونالوا منها مغانم كثيرة ، ومكن الله المسلمين من أعدائهم حتى صرعوا رؤوس الجاهلية وأقطاب الشرك ... عادوا وأكاليل النصر فوق هاماتهم يتقدمهم الرسول الكريم ، فاستقبلتهم المدينة جذلة فرحة ، وزغرد النساء ، وأنشد الصبيان ، والقلوب مفعمة بالعزة والفرح ... وجاء (كعب بن مالك) شاعر الرسول ينشد :

عجيب لأمر الله والله قادر ... على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشراً ... بغوا وسبيل البغى بالناس جائر
وقد حشدوا واستنفروا من يليهم ... من الناس حتى جمعهم متكاثر
وفينا رسول الله والأمر حوله ... له معقل منهم عزيز وناصر
فلما لقيناهم وكل مجاهد ... لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره ... وأن رسول الله بالحق ظاهر
وقد عربت بيض خفاف كأنها ... مقابيس يزهيها لعينيك شاهر (١)
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا ... وكان يلاقى الحين من هو فاجر
فكب أبو جهل صريعاً لوجهه ... وعتبة قد غادرته وهو عاثر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به ... وليس لأمر حمّه الله زاجر (٢)

(١) مقابيس : جمع مقباس وهو شعلة النار
(٢) حمه الله : قضاه وأراده .

وما إن استقر بالرسول المقام ووزع الغنائم على الجنود وأعطى كل ذى حق حقه حتى جاءه (أنس بن النضر) والدموع تذرف من عينيه والأسى يعقد لسانه والحسرة تلوح من أسارير جبينه ... جلس أمام الرسول صلى الله عليه وسلم ليعتذر عما صنع ويعطيه عهداً وموثقاً على أن يكون الجندى الأمين و (الفدائى) الصادق إذا ما حارب الرسول المشركين مرة أخرى ...

قال: « يا رسول الله ، غبت عن أول قتال قاتلت فيه المشركين . لئن الله أشهدنى قتال المشركين ... ليرين الله ما أصنع ...

* * *

رجعت قريش إلى مكة تبكى قتلاها وناح النساء عليهم شهراً كاملاً بعد أن جززن رؤوسهن ... رجعوا وقد تركت (بدر) فى نفوسهم أثراً عميقاً حز فى قلوبهم وحفزهم إلى العمل على الأخذ بالثأر ولم الشعث وجمع الشتات والاستعداد لمعركة أخرى ينتقمون فيها لما أصاب ساداتهم يوم بدر ويمحون عار الهزيمة الذى لحقهم وكاد يودى بمكانتهم بين العرب وقد أدركوا أنهم إن لم يأخذوا على يد هؤلاء المسلمين ويقصموا عروتهم ويضعفوا قوتهم فسيقضى على قريش بالذلة والضعة بعد العزة والمنعة .

وعزموا على القتال وحشدوا الجموع وجهزوا الجيش والتقوا مع المسلمين جانب (أحد) وكان المسلمون إذ ذاك قلة وقد باغتهم العدو وأصبح قريباً من ديارهم .. وكان اليوم يوم جمعة ، فصلى الرسول بالناس وأخبرهم بأن النصر لهم ما صبروا ، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم؛ ولبس لأمة الحرب وتقلد السيف وتقدم بالمسلمين نحو (أحد) وأمر بعضاً من أصحابه أن يرابطوا فى أعلى الجبل وأن يرشقوا المشركين بالسهام ، وأوصاهم بأن لا يتركوا مكانهم حتى ولو ظهر المسلمون على أعدائهم ... ودقت الساعة وابتدأت المعركة فكان النصر فيها بادىء ذى بدء حليف المسلمين إذ حملوا على أعدائهم حملات صادقة زعزعتهم وقذفت فى قلوبهم الرعب وأدركوا أنهم إزاء قوم ذوى بأس شديد يكرهون الحياة و يطلبون الموت نصرة للعقيدة ودفاعاً عن المبدأ .. فتراجعوا وفروا منهزمين .. ولما رأى (النابلة) أن العدو قد انهزم وترك وراءه الأموال والمتاع والسلاح نسوا أمر رسول الله فتركوا أماكنهم وأسرعوا لينالوا ما بقى من الغنائم ... وهنا اغتنم الأعداء الفرصة فكروا عليهم من خلفهم وأخذوا مواقعهم وأشرفوا عليهم وشرعوا يرمونهم بالنبال، وجعل الفرسان يحملون عليهم بالسيوف حتى رجحت كفة الأعداء وكاد يقضى على المسلمين ...

* * *

رأى (أنس بن النضر) ما أصاب المسلمين وكيف أن الله قد أخذهم ببعض ما كسبوا ، وذكر العهد الذى قطعه لرسول الله على نفسه ، وثارت فى نفسه عزة الإسلام وطفرت الدمعة من عينيه حزناً على ما أصاب المسلمين فرفع يديه إلى السماء وقال : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) » ثم امتطى صهوة جواده واستل سيفه وشرع رمحه وتقدم نحو صفوف الكفار فاستقبله (سعد بن معاذ) فقال له أنس (يا سعد بن معاذ ! ... واهاً لريح الجنة ! إنى لأجد ريحها ورب النضر عند هذا الجبل) وألفى أبا بكر وعمر وقد انتحيا جانب الجبل وألقيا بأيديهما فقال : ما يجلسكم ! ... قالوا : قتل رسول الله[1] ، قال : فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه) ثم ألقى بنفسه فى أتون المعركة واستقبل الموت استقبالا رهيباً لا عهد للناس بمثله وقد وهب روحه (فداء) للاسلام الذى آمن به والرسول الذى اتبعه .

* * *

انجلى غبار المعركة وهدأ صليل السيوف ورجعت الجيوش أدراجها وبقى من المسلمين من يلم القتلى ويحمل الجرحى ... وافتقد المسلمون (أنس بن النضر) فلم يجدوه بين الجرحى أو القتلى فاشتد حزنهم عليه وعظم مصابهم به وأيقنوا بأنه قد أصبح أسيراً فى يد المشركين يسومونه سوء العذاب وينتقمون منه شر انتقام؛ وبعد قليل جاءت أخته (الربيع) لترى أخاها فألفت المسلمين حيارى لا يعرفون من أمره شيئاً ، وأخبروها بأنهم لم يجدوه بين القتلى أو الجرحى ، فأنعمت النظر فى وجوههم التى مثل بها المشركون فلم تجد بين هذه الوجوه التى شوهها الأعداء ما يدل على أن أخاها منهم ، وكادت تقطع بما قطع به القوم لولا أن وقع بصرها عفواً على (بنانه) وكان جميل البنان فعرفته بها وأيقنت أنه (أنس)

(١) وكان المشركون قد أذاعوا هذا بين المسلمين ليفرقوا جمعهم .